

التبيان في تفسير القرآن

(240) أخبرنا الله تعالى بهذه الآية عن هؤلاء الكفار الذين سألوا الآيات وعلم من حالهم أنهم لا يؤمنون ولو فعل بهم ما فعل حتى لو أنزل عليهم الملائكة وكلمهم الموتى بأن يحييهم الله حتى يكلموهم، وحشر عليهم كل شيء قبلاً، على المعنى الذي فسرناه من ظهور خرق العادة فيه والمعجزة الباهرة فيه لم يؤمنوا لشدة عنادهم وعتوهم في كفرهم. ثم قال " إلا ان يشاء الله " ومعناه احد أمرين: أحدهما - قال الحسن: إلا أن يشاء الله أن يجبرهم على الإيمان بأن يمنعهم من اعداد الإيمان كلها منهم الإيمان. الثاني - قال أبو علي الجبائي: إلا ان يشاء الله ان يلجئهم بأن يخلق فيهم العلم الضروري بانهم ان راموا خلافه منعوا منه كما ان الانسان ملجأ الى ترك قتل بعض الملوك بمثل هذا العلم. وانما قلنا: ذلك، لان الله تعالى قد شاء منهم الإيمان على وجه الاختيار، لانه أمرهم به وكلفهم إياه، وذلك لا يتم إلا بأن يشاء منهم الإيمان، ولو أراد الله من الكفار الكفر للزم أن يكونوا مطيعين اذا كفروا، لان الطاعة هي فعل ما أريد من المكلف. وللزم أيضاً أن يصح أن يأمرهم، ولجاز ان يأمرنا بأن نريد منهم الكفر كما أراد هو تعالى وفي الآية دلالة على ان ارادة الله محدثة، لان الاستثناء يدل على ذلك لانها لو كانت قديمة لم يجر هذا الاستثناء، كما لا يجوز ان يقول القائل: لا يدخل زيد الدار إلا أن يقدر الله أو إلا ان يعلم الله لحصول هذه الصفات فيما لم يزل. وقوله " ولكن أكثرهم يجهلون " انما وصف أكثرهم بالجهل مع أن الجهل يعمم لان المعنى يجهلون انه لو أوتوا بكل آية ما آمنوا طوعاً، وفي الآية دلالة على انه لو علم الله انه لو فعل بهم من الآيات ما اقترحوها لامنوا أنه كان يفعل ذلك بهم وأنه يجب في حكمته ذلك، لانه لو لم يجب ذلك لما كان لهذا الاحتجاج معنى. وتعليله بأنه انما لم يظهر هذه الآيات لعلمه بأنه لو